

تطور الخبرات الثقافية في العالم الإسلامي عبر القرن

د. عبد العزيز عثمان التويجى

توطئة :

الرقعة الجغرافية للعالم الإسلامي تتسع لتشمل الأقطار التي يعيش فيها المسلمون، سواء أكانوا مواطنين أكثرية أم أقلية، أم جاليات مقيمة، وفدت على بلدان ليست إسلامية، لسبب من الأسباب. وهذه الفئة حديثة عهد بالظهور، إذ لم تبدأ الهجرة من الأقطار الإسلامية إلى الغرب، إلا في فترة الحرب العالمية الأولى .

وينبغي أن نسجل ابتداءً أن مصطلح (العالم الإسلامي) هو من نحت رهط من المستشرقين الذين كانوا يقصدون به عالم الإسلام، أي المناطق الجغرافية التي تستوطنها الشعوب الإسلامية، ولم يكن هذا المفهوم يتعدى التقسيم الجغرافي التقليدي. وقد ظهرت مجلة استشراقية في أوروبا باسم (العالم الإسلامي) في القرن التاسع عشر .

وبهذا المفهوم راج مصطلح العالم الإسلامي في العقد الأول من القرن العشرين، ولكنه تبلور في الدلالة وتطور في المعنى، حتى صار يعبر عن البعد الحقيقي للمجال الجغرافي الحيوي للأمة الإسلامية. وبهذا المدلول نفهم (العالم الإسلامي) اليوم .

ويجدر بنا أيضاً أن نقر أن التشكيل الحالي للعالم الإسلامي لم يكتمل ويأخذ شكله الراهن إلا بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، ضمن التشكيلة الجديدة للأقطار التي كانت منضوية تحت لواء الإمبراطورية العثمانية، التي كان تمزيقها إحدى النتائج التي أسفرت عنها تلك الحرب، في منتصف العقد الثاني من القرن العشرين.

من أجل ذلك سنأخذ في الحسبان -وبقدر الإمكان- المفهوم الواسع والمعنى الشامل للعالم الإسلامي، وهو ما سيوفر لنا المجال للحديث بقدر من التركيز يقتضيه المقام، عن الخبرات الثقافية التي تراكمت طوال القرن الذي ودعناه .

ولكننا مع ذلك نرى أن مائة سنة تاريخ طويل حقاً، ولو قلنا في (مدى ربع قرن)، لكان أقرب إلى الدقة، ذلك لأن الأسلوب العلمي في الدراسة يحتاج توجيهاً أكاديمياً صحيحاً، ولم تكن لدينا جامعات تقوم بهذا التوجيه، ثم لما نشأت الجامعات لم يحتل فيها رصد الاتجاهات الثقافية مكانه، بين فروع الدراسات الإنسانية والاجتماعية، إلا في دور متأخر⁽¹⁾. وإن كنا نقصد إلى التركيز ما أمكن واستخلاص

الدروس ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، لنستبين قدرًا لا بأس به من ملامح الاتجاهات الثقافية التي سادت طوال القرن العشرين.

ما الخبرة الثقافية ؟

الخبرة الثقافية هي خلاصة تراكم تجارب النشاط الإنساني في المجال الثقافي العام، التي تؤتي ثمارها وتحقق نتائجها على مرور العقود، وتوالي المراحل التي يقطعها الفعل الثقافي في دائرة من دوائر الثقافة، على تعددها وتنوعها، وامتدادها.

وتكتسب الخبرة الثقافية من الممارسة الدؤوب للعمل الثقافي في مستوياته المتعددة؛ فكلما نما النشاط في حقلٍ من حقول الثقافة بالمفهوم العميق للثقافة، وكلما ترسّبت على الفعل الثقافي آثارٌ ملموسة، تتغلغل في النسيج الاجتماعي، توسّعت الخبرة الثقافية واغتنت، وطالت ارتفاعاً، و ترسخت عمقاً، وامتدّت أفقاً

وليس بالضرورة أن يكون الفعل الثقافي الذي تُكتسب به الخبرة الثقافية ذا نمطٍ معيّن، أو يأخذ شكلاً محدداً، أو يُصَبَّب في قالبٍ ما، فهذا ليس شرطاً لاكتساب الخبرة، لأنه بقدر اتساع مدى الحركة التي يقوم بها الإنسان في أحد حقول الثقافة، تتوافر له عناصر الخبرة في هذا المجال، إن على المستوى الفردي، أو على المستوى الجماعي، وإن كانت الخبرة الثقافية على المستوى الثاني تكون أعمق، وأشمل، وأكثر رحابة .

ويأتي اكتساب الخبرة من الممارسة الفعلية والتطبيق العملي للأشطة، وللمشروعات الثقافية، وبقدر ما تنضج التجربة، وتتمحص، وتكتمل عناصرها، تزداد الخبرة غني، وغزارة، وكثافة. وتكون الخبرة على المستوى الفردي وعلى المستوى الجماعي، وهي في كلتا الحالتين، وقود للحركة الثقافية، وقوة للدفع بمسيرتها، إذ لا تقوم نمضة ثقافية من فراغ، ولا بد لها من أن تستند إلى خبرات مكتسبة .

الوضع الثقافي في العالم الإسلامي في مطلع القرن:

أطل القرن العشرون، والعالم الإسلامي يعيش مرحلة دقيقة من مراحل التحوّل البطيء من طورٍ إلى آخر. كانت معظم الأقطار الإسلامية قد احتلت من قِبَل الاستعمار الأوروبي، وما لم يُحتل منها أخذ يترنّح تحت ضربات القوى الأوروبية الاستعمارية الصاعدة، حتى إذا دخل العقد الثاني من هذا القرن، سقطت جميع البلدان الإسلامية فريسة للاستعمار، ما عدا الجزء الأكبر من الجزيرة العربية . وما إن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، حتى تمزق الكيان الإسلامي الكبير الذي كان يتمثل في الدولة العثمانية على الرغم من تهالكها وضعفها وديب الفساد في نسيجها.

وإذا كانت الأحوال السياسية في العالم الإسلامي مع بداية القرن العشرين، قد عرفت قدراً من الاضطراب والارتباك والتوتر، فإن الحياة الثقافية لم تكن في مثل تلك الدرجة من السوء، وهو ما نستطيع أن نقارنه بما كان عليه الوضع في العصر الثاني للدولة العباسية، وفي زمن دويلات الطوائف بالأندلس؛ إذ لم يكن هناك تلازم بين الحياة السياسية والحياة الثقافية، بحيث كانت الأوضاع الثقافية بصورة عامة لا تعكس بالوضوح الكامل الحالة السياسية. فلقد اطرقت حركة الثقافة، وإن كان ببطء شديد، وأخذت تتجه نحو مجالات مبتكرة، في ظل الأجواء الملبدة بالغيوم من جراء الأطماع والمؤامرات، والدسائس الاستعمارية التي أدخلت المجتمعات الإسلامية في متاهات، سرعان ما تكاثفت، حتى أطبق ظلها على معظم أنحاء العالم الإسلامي .

ولقد كانت الحركة الثقافية التي عرفها العالم الإسلامي ابتداء من القرن التاسع عشر القاعدة الأساسية التي قام عليها الوضع الثقافي العام في مطلع القرن العشرين؛ بحيث يمكن القول بأن الملامح العامة للحياة الثقافية في العقدين الأولين من القرن العشرين قد تبلورت بصورة واضحة، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ففي هذه المرحلة عرفت المراكز الثقافية الكبرى في العالم الإسلامي، حركة الطباعة والنشر، خصوصاً في مصر والشام وإيران والهند. ومن هذه المراكز كانت تشع أنوار المعرفة والثقافة على نحو من الأنحاء. وإن كانت ثمة مراكز أقل تأثيراً في المشرق والمغرب، عرفت هي الأخرى حركة مماثلة أخذت تتطور حسب ما كان متاحاً لها من وسائل وإمكانيات إلى أن أطل القرن العشرون.

ونلاحظ في هذا السياق أن الثقافة العربية الإسلامية ظلت قائمة تؤدي دورها في تفاوت من جهة إلى أخرى في العديد من المناطق، بما فيها المناطق التي كانت خارجة عن المجال الذي عرف احتكاً مع التيارات الثقافية الآتية من الغرب، بل إن الثقافة العربية الإسلامية ظلت محتفظة بوجهها في أكثر المناطق تخلفاً، بالمقياس الذي كان معتمداً عهدئذ، سواء أكان ذلك بسبب ظروف الاحتلال الأوروبي، أم نتيجة للمناخ الاجتماعي والاقتصادي السائد. وهذه الجذوة المتوهجة هي التي سينطلق منها الشعاع، الذي سيضيء الطريق أمام الرواد الأوائل للحركة الثقافية، الذين ظهوروا مع مطلع القرن العشرين في بعض أطراف العالم الإسلامي.

وهكذا، فلم تكن الحواضر الكبرى في العالم الإسلامي هي -وحدها- المحضن لانطلاقة النشاط الثقافي في بداية القرن، ولكن كانت هناك نقط عديدة على خريطة العالم الإسلامي، ظلت حاضنة للثقافة العربية الإسلامية عبر الأجيال، ومنها سينطلق المد الأول للحركة الثقافية، سواء في قلب العالم الإسلامي، أم في جناحيه الشرقي والغربي، أم حتى في الأطراف النائية عن المراكز الثقافية التقليدية التي

فيها امتد الإشعاع الثقافي إلى بداية القرن العشرين. وعلى منوال ما كان فيها من نشاط ثقافي، نسجت الخيوط الأولى للتحربة الثقافية في هذا القرن .

وسنسوق مثالين على انطلاق النهضة الثقافية في فجر القرن العشرين، من منطقتين نايتين عن الحواضر الثقافية التقليدية وعن مراكز النشاط الثقافي: الأولى . في غرب العالم الإسلامي، والثانية . في شرقه. ففي قرية من قرى شرقي الجزائر، نشأ الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (١٨٨٩ - ١٩٦٥ م) باعث روح النهضة العربية الإسلامية في الجزائر الحديثة، ومجدد اللغة العربية في القرن العشرين، وتلقى تعليمه على يد عمه الشيخ محمد المكي الإبراهيمي، متدرجاً من المرحلة الأساس، إلى المرحلة الوسطى، ثم المرحلة العليا، حيث تلقى معظم علوم الثقافة العربية الإسلامية، واستوعبها، وأحاط بها، وتعمق فيها، وتشربها، وأحادها، دون أن يغادر هذه القرية، وامتلاً وفاضه من هذه العلوم والمعارف على تنوع مشاربها، وتعدد مظاهرها، إلى أن صار مؤهلاً للتدريس قبل أن يناهز الرابعة عشرة من عمره^(٢).

أما المثال الثاني فنسوقه من الهند، موطن الشيخ عبد الحي الحسيني اللكهنوي (١٨٦٩ - ١٩٢٣ م)، (والد الشيخ أبي الحسن الحسيني الندوي، ومؤلف كتاب "نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر"، الذي يقع في ثمانية أجزاء، ويحتوي على خمسة آلاف ترجمة لأعيان الهند، والذي صدر بعنوان ثانٍ، بعد طبعته الأولى، هو "الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام" وكتاب "الثقافة الإسلامية في الهند" وكتاب "معارف العوارف في أنواع العلوم والمعارف")، وهو مؤرخ الهند الأكبر، ومن كبار العلماء في القرن العشرين، وقد بلغ شأواً بعيداً في اكتساب المعارف، والتبحر في العلوم على يد العلماء من بلده، ووضع التأليف الموسوعية باللغتين العربية والأوردية، وخدم الثقافة العربية الإسلامية، وكان من أهم أعماله سهره على تنشئة أبنائه، ذكوراً وإناثاً، الذين صاروا علماء، وأدباء، وشعراء، ومصنفين، وأساتذة للأجيال، وبناءً للنهضة الثقافية، والتربوية، والتعليمية العربية الإسلامية، في الهند طوال القرن العشرين^(٣). وكان ذلك ثمرة للجهود السابقة التي بذلت في الهند، لنشر اللغة العربية، والثقافة العربية الإسلامية، طوال القرن التاسع عشر^(٤).

يؤكد هذان المثالان أن الثقافة العربية الإسلامية ظلت متجددة ومتغلغلة في نسيج المجتمعات العربية الإسلامية عبر القرون، حتى في المناطق النائية عن المراكز التي انطلقت منها الشرارة الأولى للنهضة في القرن التاسع عشر. وهو الأمر الذي يثبت للباحث المتأمل، أن ازدهار الثقافة العربية الإسلامية في القرن العشرين، قام على أسس ثابتة .

ومع إطلالة القرن العشرين، عرفت الحياة الثقافية في العالم الإسلامي تطوراً نسبياً سار في اتجاهات أربعة :

* أولها : الطباعة والنشر والترجمة .

* ثانيها: التربية والتعليم .

* ثالثها: الصحافة.

* رابعها: الأعمال الفنية (سينما، مسرح، فنون تشكيلية).

وأول ما نلاحظه عند التأمل في الحياة الثقافية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والعقد الأول من القرن العشرين أن العمل الثقافي، سواء في إطاره العام، أم في نطاقه المحدود، كان يقوم على المبادرة الخاصة، وبالجهود الذاتية، أو بالمساعي الأهلية .

وفي هذه الاتجاهات الأربعة؛ الطباعة، والنشر، والترجمة، والتربية والتعليم، والصحافة، والأعمال الفنية، قطع العمل الثقافي المراحل الأولى في إطار المبادرات الفردية والأهلية، التي قام بها رواد كان لهم فضل سبق إلى تمهيد الطريق أمام تطور الحياة الثقافية، وتبلور التجارب في هذه الميادين في المراحل التالية، التي اطردت طوال العقدين الأولين من القرن العشرين، إلى أن اكتسبت صفة الثبوت والرسوخ، وإلى أن قامت الدول المستقلة في العالم الإسلامي على أسس عصرية، وجاءت بأنظمة ثقافية حديثة تولت تدبير الشأن الثقافي، وحلت جهودها الرسمية محل المبادرات الفردية والأهلية، في معظم الأقطار، وفي غالب الأحيان .

لقد تمثل هذا المظهر المتطور للتجارب الثقافية التي عرفها العالم الإسلامي مع بداية القرن العشرين، في الواجهات الثلاث المشار إليها، بحيث يمكن القول إن التأسيس للنهضة الثقافية في الأقطار الإسلامية التي استوت على عودها في الربع الأول من القرن العشرين، قد تم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وبصورة خاصة في العقدين الأخيرين من هذا القرن، وتمثل ذلك كله في العديد من المطابع، ودور النشر، والمؤسسات الصحافية، والمدارس الأهلية، والجمعيات الخيرية ذات الاهتمامات الثقافية التي تأسست في فترة سابقة لبزوغ القرن العشرين، والتي عرفت نمواً واسعاً في العقود الأولى من القرن الجديد.

لقد كان إنشاء أول جامعة في العالم الإسلامي طبقاً للمعايير الحديثة، في القاهرة في سنة ١٩٠٨م، ومبادرة أهلية اشتركت فيها النخبة المثقفة في مصر عهدئذ، تجربة تربوية ثقافية فكرية بالغة التميز، سيكون لها دور شديد التأثير في الحياة الثقافية العربية الإسلامية طوال القرن، وبصورة خاصة أكثر تأثيراً وأعمق نفوذاً، في النصف الأول من القرن، نظراً إلى ما كان لهذه الجامعة، التي تغير اسمها أربع مرات منذ إنشائها، من الجامعة الأهلية (١٩٠٨م)، إلى الجامعة المصرية (١٩٢٥م)، إلى جامعة فؤاد الأول (١٩٤٠م)، إلى جامعة القاهرة في الوقت الراهن (ابتداء من عام ١٩٥٣م)، من تأثير قوى على جميع المستويات، في الثقافة العربية الإسلامية. ولقد كانت هذه الجامعة المثال المحتذي به في العالم

الإسلامي، خصوصاً في الأقطار العربية، عند قيامها بإنشاء الجامعات العصرية^(٥). وتعد جامعة الجزائر الجامعة الثانية من حيث الترتيب، إذ تأسست كلية الآداب في الجزائر في عام ١٩٠٩م، وكانت النواة الأولى لجامعة الجزائر^(٦).

وبدأت النهضة التعليمية في تركيا في القرن التاسع عشر، بصورة مختلفة عما كان الوضع عليه في مصر عهدئذ، وعما هو معروف في أوروبا؛ فقد ازداد التوسع في الكليات، ثم بدى في التوسع في إنشاء المدارس، ويرجع ذلك إلى اهتمام الدولة العثمانية بالكليات العسكرية أولاً، ثم اهتمامها بالمدارس لتغذية هذه الكليات العسكرية بالخرجين ذوي المستويات العلمية المؤهلة للتعليم العالي.

ويتوازي الدور الذي قامت به جامعة القاهرة في الحياة الثقافية العربية الإسلامية، مع الدور الذي نهضت به المؤسسات الصحافية، التي أنشئت في مصر والشام، وكان من أبرز منشئها أفراد من المواطنين الشاميين، وفدوا على مصر فأنشؤوا صحفاً ومجلات، كان لها تأثيرها الواضح في الحركة الثقافية في القرن العشرين، نذكر من بينها، على سبيل المثال، مجلات (الهلال)^(٧)، و(المقتطف)^(٨)، و(المنار)^(٩) التي صدرت في القاهرة في العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر، مع تفاوت في تواريخ الصدور. وهي المجلات التي أدت رسالة ثقافية عظيمة التأثير، بغض النظر عن قيمة هذا التأثير، في الحياة العقلية والثقافية والأدبية والفكرية، ليس فقط في الأقطار العربية، بل في العالم الإسلامي قاطبة.

وتتكامل هذه الرسالة، مع ما كان مجلة (العروة الوثقى) التي أصدرها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في باريس في عام ١٨٨٤م، والتي كانت توزع في أنحاء عديدة من العالم الإسلامي، والتي لم يصدر منها سوى ثمانية عشر عدداً، من نفوذ فكري وثقافي إسلامي قوي المفعول.

ولذلك فإن المنابر الصحافية الثقافية، التي قامت بدور مؤثر في الفكر العربي الإسلامي مع مطلع القرن العشرين كثيرة، ولكننا نعد المجلات الثلاث التالية أكثرها تأثيراً في الحياة الثقافية، وهي: (الهلال) و(المقتطف) و(المنار)، وإن كان لكل واحدة من هذه المجلات الثلاث طبيعة خاصة، ورسالة، ومنهج، وأسلوب.

ولقد استمرت (الهلال) و(المقتطف) تؤديان رسالتهما بتأثير ملحوظ. بصرف النظر عن القيمة الفكرية لهذا التأثير. طوال النصف الأول من القرن العشرين، حيث توقفت (المقتطف) عن الصدور في عام ١٩٥٢م، وواصلت (الهلال) الصدور - ولا تزال إلى يومنا هذا -، ولكن مع ظهور مجلات منافسة لها، كانت تتكاثر مع تطور حركة الصحافة والنشر في النصف الثاني من القرن، في حين أن مجلة (المنار) التي كان لها تأثير نافذ في توجيه مسار الثقافة العربية الإسلامية على صعيد البلدان العربية الإسلامية، قد توقفت عن الصدور في عام ١٩٣٥م، بوفاة صاحبها ومنشئها الشيخ محمد رشيد رضا،

وهو عالم من طرابلس الشام، وفد على مصر في أواخر القرن التاسع عشر، واتصل بالشيخ محمد عبده الذي شجعه على إصدار (المنار) في عام ١٨٩٨ م .

ولقد كان لهذه المجالات الثلاث بصورة خاصة دور قوي النفوذ في الثقافة العربية الحديثة، وكان مجلة (المنار) حضور واسع في العالم الإسلامي كله من المحيط إلى المحيط؛ إذ كانت تتبنى قضايا الأمة الإسلامية في مختلف الأقطار الإسلامية. وبذلك تعد (المنار) جامعة إسلامية اضطلعت بمهمة جليلية، مهدت السبيل من خلالها إلى قيام النهضة العربية الإسلامية في مجالاتها المتنوعة.

ولا نغفل هنا الدور الذي قامت به مجالات ثقافية رائدة أخرى، مثل (الرسالة)^(١٠)، و(الثقافة)^(١١) اللتين صدرتا في القاهرة في العقد الثالث من القرن العشرين، واستمرتتا في الصدور إلى سنة ١٩٥٢م، في وضع الأسس الثابتة للعمل الثقافي العربي الإسلامي، في مرحلة كانت تفتقر إلى مؤسسات وهياكل تتولى إدارة الشؤون الثقافية، وتديرها في إطار العمل العربي الإسلامي المشترك. ولقد كانت مجلة (الرسالة) طوال السنوات العشرين، التي وازلت فيها على الصدور، تقوم مقام جامعة عربية تمتد إشعاعها إلى أبعد الآفاق في الأقطار العربية التي كان معظمها عهدئذ، خاضعاً للاستعمار الأوروبي^(١٢).

وعلى صعيد موازٍ لهذا المجال من مجالات العمل الثقافي، تأسست في مصر في عام ١٨٩٩م (جمعية إحياء العلوم العربية) بمبادرة من الشيخ محمد عبده. ويلاحظ هنا عدم ورود مصطلح (إحياء التراث) في اسم هذه الجمعية التي كانت رائدة في مجالها، لأن هذا المصطلح (إحياء التراث) ظهر في فترة لاحقة، بعد أن قطع العمل في تحقيق أمهات كتب التراث العربي الإسلامي ونشرها، شوطاً بعيداً، وهو مصطلح يعبر عن معنى غير سليم، كما هو واضح. ولقد قامت هذه الجمعية التي تعد الأولى من نوعها، بجهد ملموس في المجال الذي أنشئت للعمل فيه، وتكامل عملها مع ما قامت به المطبعة الأميرية في بولاق، بالقاهرة - التي أنشأها محمد علي باشا في عام ١٨١٩م والتي صارت تعرف بمطبعة بولاق نسبة إلى المنطقة التي أنشئت فيها-، من عمل متميز ورائد عن جدارة، في حقل نشر أمهات كتب التراث العربي الإسلامي نشرًا محققاً مصححاً، بدقة متناهية. وهذه المطبعة الرائدة تمثل بداية الطباعة العربية في مصر تحديداً. وهي بذلك القاعدة التي قامت عليها بدايات النهضة الثقافية العربية الإسلامية في القرن العشرين في جميع أقطار العالم العربي الإسلامي^(١٣).

ولما كانت المدارس والمعاهد هي محضن الثقافة، لأنها تتولى مهمة تربية الأجيال، وتكوينها، وإعدادها لممارسة وظيفتها في المجتمع في شتى المجالات، بما في ذلك المجال الثقافي، فإن حركة تأسيس المدارس على النمط العصري، بدأت في مصر والشام والهند وإستانبول وإيران. وعلى سبيل المثال نذكر (المدرسة الوطنية الإسلامية) التي أنشأها الشيخ حسين الجسر في طرابلس الشام في عام ١٨٨٠م^(١٤)،

و(مدرسة دار الدعوة والإرشاد) التي أنشأها الشيخ محمد رشيد رضا في القاهرة في عام ١٩١٢م، اللتين تمثلت فيهما الريادة في مجال المبادرات الأهلية، لإنشاء المدارس والمعاهد في الأقطار العربية الإسلامية، قبل أن تؤسس وزارات التربية والتعليم، باستثناء (نظارة المعارف) التي تأسست في القرن التاسع عشر في مصر، والتي كانت بمثابة وزارة التربية والتعليم.

لقد كانت هذه المدارس الأهلية، التي أخذت في الانتشار مع العقود الأولى من القرن العشرين، النواة الأولى لتخريج رجال الثقافة العربية، الذين تأهلت منهم العناصر النشيطة، التي تولت فيما بعد ممارسة العمل الثقافي، وأسهمت من مواقعها المتنوعة في ازدهار الثقافة العربية الإسلامية، وفي إقامة الأسس القوية للنهضة الثقافية التي عرفتها الأقطار العربية مع بداية القرن، والتي تبلورت، ونمت، وتطورت، وازدهرت طوال القرن.

وشهد القرن العشرون منذ بواكيره حركة نشيطة في مجال الفنون الإبداعية التي تشمل المسرح والفنون التشكيلية بصورة عامة، كما تشمل السينما التي ظهرت في مطلع الثلاثينيات بمصر. وكان المسرح هو المجال الفني الذي عرف ازدهاراً واسعاً بدأ من القرن التاسع عشر في بعض العواصم العربية، خصوصاً في القاهرة، ودمشق، وبيروت، وفي إستانبول وأنقرة بتركيا، ثم عمَّ وانتشر في معظم أقطار العالم العربي الإسلامي إلى أن أصبح هو سيد الفنون بلا منازع .

وكان المسرح في أول عهده في العالم العربي الإسلامي، تقليداً للمسرح الأوروبي في مضامينه وموضوعاته، وقد تمثل ذلك في ترجمة الأعمال المسرحية الفرنسية، والإيطالية في المرحلة الأولى، ثم الإنجليزية في المراحل التالية، وتقديمها إلى الجمهور في قالب عربي محلي، وفي غالب الأحيان باللهجة العامية. وكان ظهور المسرح الأدبي ظاهرة ثقافية، كان لها تأثيرها في الحياة الأدبية والثقافية. ولمسرحيات أحمد شوقي التي قدمت على المسرح . ولا تزال تقدم إلى اليوم، وإن كان في نطاق محدود . دور أدبي متميز، أسهم في ازدهار الحركة الثقافية. كما أن المسرحيات الشعرية أسهمت أيضاً في نشر اللغة العربية، بين طبقات الشعب، وتحيبها إلى الجمهور العريض .

الاتجاهات الثقافية لبوادر النهضة :

عند التأمل في الحياة الثقافية في الأقطار العربية الإسلامية في القرن العشرين بصورة إجمالية، تلفت النظر إلى أن الاتجاه العام الذي غلب على العمل الثقافي، كان في بواكيره الأولى، محصوراً في المناحي الأدبية واللغوية، ولم يتعداها إلى المجالات الثقافية التقليدية الأخرى إلا قليلاً. فلقد كانت الانطلاقات الثقافية الأولى ذات منزع أدبي صرف، ولم تأخذ الاهتمامات العلمية المتنوعة حظها من الظهور والتبلور إلا في النصف الثاني من القرن، ويتمثل ذلك بصورة واضحة في الترجمات العربية التي ظهرت لأعمال

ومؤلفات غربية، والتي كان الطابع الأدبي أغلب عليها وأعم على وجه الإجمال مع أن الترجمة إلى اللغة العربية عرفت في القرن التاسع عشر؛ نزوعاً إلى الموضوعات العلمية، وإن كان هذا النزوع انتابه التعثر إلى درجة التوقف شبه التام في أحيان كثيرة.

وهذا الذبول الذي عرفته ترجمة الكتب العلمية من اللغات الأوروبية إلى اللغة العربية كان من نتائجه إفساح المجال أمام ترجمة الكتب التي تدخل في حقل العلوم الاجتماعية والإنسانية، خاصة منها كتب الأدب، من قصص، وروايات، ودواوين، ورحلات، ومذكرات. ففي العقد الثالث والرابع من القرن التاسع عشر صدرت ترجمات عربية رائدة لمؤلفات في علم التشريح، وفي المعادن النافعة، وفي التشريح البيطري، وفي علم الصحة، وفي الفلسفة الطبيعية، وفي أصول التشريح العام، وفي علم الطبيعية، وفي علم الجغرافيا، وفي علم الزراعة، وفي الأقرباديين (تراكيب الأدوية) وفي الجراحة، وفي الطب البيطري، وفي طب العيون، وفي علم الجبر والمقابلة، إلى غير ذلك من الكتب العلمية التي ترجمت إلى اللغة العربية، عن اللغتين الفرنسية والإيطالية بوجه خاص. ولكن هذا الكم من الكتب المترجمة، فاقتته الكتب الأدبية والفلسفية. ودخل القرن العشرون والوضع الثقافي العام بهذه الصورة، وهو ما كان له تأثير قوي على بروز الاتجاهات الثقافية الأدبية على حساب الاهتمام بالعلوم وتطبيقاتها، وما انطوت عليه هذه الاتجاهات من أفكار، وآراء، ووجهات نظر، لم تكن دائماً منسجمة مع قيم الثقافة العربية الإسلامية، ومثلها العليا، ومبادئها السامية.

وعلى مستوى التأليف العلمي يحصي صاحب (جامع التصانيف الحديثة) عدد الكتب العلمية التي صدرت باللغة العربية في الفترة من ١٩٢٠م إلى ١٩٢٦م، ويورد عناوينها، وأسماء مؤلفيها، وعدد صفحاتها، وأماكن صدورها، ويشير إلى أن ما صدر من كتب الطب والصحة بلغ ثلاثين كتاباً، ومن كتب العلوم الرياضية والزراعية سبعة وأربعين كتاباً، بينما صدر خلال هذه الفترة سبعون كتاباً أدبياً، ثم قال المصنف: إنه أهمل أسماء روايات كثيرة، لم ير لها أهمية أدبية أو تاريخية^(١٦). وتجدد الإشارة في هذا المقام، إلى قلة النسخ الصادرة من الكتب العلمية بالنسبة إلى الكتب الأدبية.

ويذكر مصنف معجم (المطبوعات العربية والمعربة) في معرض حديثه عن بوادر نهضة التأليف والنشر، التي عرفت الأقطار العربية الإسلامية إلى حدود بزوغ القرن العشرين - أن من يمعن النظر اليوم - ١٩١٩م - في كثرة ما صار إليه عدد المطابع والكتب والمطبوعات في عاصمة القطر المصري - على سبيل المثال - لا يلبث أن تتولاه الدهشة والاندهال من هذه النهضة العلمية، بانتشار المطابع والكتب إلى ما يفوق حد الإحصاء، وقس على ذلك كثيراً من البلاد السورية (سورية اليوم، ولبنان، وفلسطين، والأردن) والهندية والإيرانية والمغربية " (١٦).

ولم يتواصل العمل الثقافي في هذا الحقل العلمي الحيوي من حقول الثقافة، ولو كان قد استمر في التدرج والتطور، لكانت الثقافة العربية الإسلامية قد سلكت اتجاهات مغايرة، ولتغير الوضع الثقافي العام في الأقطار العربية الإسلامية بصورة عامة، ولتحقق مستوى من التقدم يتناسب والجهود التي بذلت طوال هذا القرن، والتي لم تثمر الثمار المرجوة؛ نتيجةً للانحراف عن الخط السوي الذي سار فيه العمل الثقافي العربي الإسلامي .

إن التركيز على القضايا الثقافية الأدبية والموضوعات الفنية، كان أبرز مظهر للاهتمامات التي سادت الحياة الثقافية في العالم العربي الإسلامي، خلال العقود الأربعة الأولى من القرن العشرين. ولعل الأسلوب الذي كان يتبع في إنشاء الجامعات في الأقطار العربية الإسلامية، يعكس هذه الظاهرة بالوضوح الكامل، فقد كانت كلية الآداب تنال في معظم الحالات، الأسبقية في التأسيس، بحيث إن أغلب الجامعات في العالم العربي الإسلامي، بدأت بكليات الآداب والعلوم الإنسانية، تليها في الترتيب في الغالب الأعم كليات الحقوق، قبل تأسيس كليات العلوم والطب والهندسة.. إلخ، في هذه الجامعات^(١٧). وإن كانت هذه الظاهرة قد بدأت تخف تدريجياً بعد انتشار الوعي العلمي، وتنبه الحكومات إلى ضرورة التوسع في التعليم العلمي والاهتمامات الثقافية العلمية.

ولم يكن هذا الوضع سويًا من الوجوه كافة، لأنه كان يفتقد طابع التوازن، مما تسبب في اختلال موازين العمل الثقافي، وأدى إلى الافتقار الشديد إلى العناصر المتكاملة للنهضة الثقافية، في أي أمة من الأمم .

لقد كان إغفال الجانب العلمي في العمل الثقافي العربي الإسلامي، والقصور في الاستفادة من التطور الذي عرفته حركة التأليف في المعارف العلمية على الصعيد العالمي خلال القرن العشرين من الأسباب القوية التي أدت إلى ضمور الحركة الثقافية في العالم العربي الإسلامي، ونضوب الإبداع العلمي بالقياس إلى الإبداع الأدبي والفني. ولعل ما يؤكد ذلك، أن المفهوم الذي ساد للثقافة وللعلم الثقافي بصورة عامة، قد غلب عليه الطابع الأدبي. ولا يزال هذا المفهوم سائداً حتى اليوم، ونحن على عتبة العقد الأول من القرن الحادي والعشرين؛ بحيث لا يشمل المعنى العلمي، وإنما يقتصر مفهوم الإبداع على الثقافة دون العلم. ويتجلى ذلك في احتفاء الأوساط الثقافية والصحافية عموماً، بالأدباء، والشعراء، والروائيين، والقصاصين، والفنانين، وعدم الاكتراث بالعلماء المتخصصين في العلوم البحتة، والعلوم التحريية، إلا نادراً.

الخبرات الثقافية المتراكمة ومدى الاستفادة منها:

لقد تضافرت جهود طائفة كبيرة من المثقفين: مفكرين بارزين، وعلماء، وكتاباً وأدباء، وشعراء، وفنانين، وصحافيين، طوال هذا القرن، وعلى امتداد ساحة العالم العربي الإسلامي في إرساء قواعد النهضة الثقافية في حقولها العلمية، والأدبية، والفنية. وقد أسهمت هذه الجهود في ازدهار الحركة الثقافية، وأثر فيها تأثيراً كبيراً، صفة من رجالات الثقافة العربية الإسلامية تعددت مشاربها، وتنوعت اتجاهاتها، وتباينت قيمة عطائها.

ففي تحقيق التراث العربي الإسلامي والعناية به ونشره، برزت أسماء عديدة، منها أحمد زكي باشا (شيخ العروبة) (١٨٦٧ - ١٩٣٤م)، أحمد تيمور (١٨٧١ - ١٩٣٠م)، لويس شيخو (١٨٥٩ - ١٩٣٨م)، الأب إنستاس ماري الكرملي (١٨٦٦ - ١٩٤٧م)، محمد كرد علي (١٨٧٦ - ١٩٥٣م)، طاهر الجزائري (١٨٥١ - ١٩٢٠م)، إبراهيم اليازجي (١٨٤٧ - ١٩٠٦م)، محمد محي الدين عبد الحميد (١٩٠٠ - ١٩٧٣م)، محمد بن أبي شنب (١٨٦٩ - ١٩٣٠م)، أحمد محمد شاکر (١٩٠٩ - ١٩٩٩م)، محمود محمد شاکر (١٩٠٩ - ١٩٩٩م)، عبد السلام هارون (١٩٠٩ - ٢٠٠٠م)، محمد أبو الفضل إبراهيم (١٩٠٥ - ١٩٨١م)، عبد الرحمن البرقوقي (١٨٧٦ - ١٩٤٤م)، عثمان الكعاك (١٩٠٣ - ١٩٧٦م)، مصطفى جواد (١٩٠٨ - ١٩٧٠م)، عبد القادر المغربي (١٨٦٧ - ١٩٥٦م)، عيسى إسكندر معلوف (١٨٦٩ - ١٩٥٦م)، محمد فريد أبو حديد (١٨٩٣ - ١٩٦٧م)، حمد الجاسر (١٩١٢ - ٢٠٠٠م)، محمد بن تاويت الطنجي (٩١٨ - ١٩٧٥م)، محمد رشاد عبد المطلب (١٩١٧ - ١٩٧٥م)، شوقي ضيف (١٩١٠ - ٢٠٠٠م)، محمد بحجة الأثري (١٩٠٤ - ٢٠٠٠م)، إحسان عباس (١٩٢٠ - ٢٠٠٠م)، ناصر الدين الأسد (١٩٢٢ - ٢٠٠٠م)، نجيب العقيقي (١٩١٦ - ١٩٨١م)، أحمد رضا (١٨٧٢ - ١٩٥٣م).

وفي مجال الأدب والفكر والثقافة العربية الإسلامية، ظهرت أسماء كثيرة منها، حسين المرصفي (١٨٨٩م)، مصطفى لطفى المنفلوطي (١٨٧٦ - ١٩٢٧م)، أحمد لطفى السيد (١٨٧٢ - ١٩٦٣م)، أحمد السكندري (١٨٧٥ - ١٩٣٨م)، طه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٣م)، عباس محمود العقاد (١٨٨٩ - ١٩٦٤م)، محمد فريد وجدي (١٨٨٥ - ١٩٥٤م)، جورجى زيدان (١٨٦١ - ١٩١٤م)، جبران خليل جبران (١٨٨٣ - ١٩٣١م)، ميخائيل نعيمة (١٨٨٩ - ١٩٨٨م)، إبراهيم عبد القادر المازني (١٨٩٠ - ١٩٤٩م)، محمد حسين هيكل (١٨٨٨ - ١٩٥٦م)، زكى مبارك (١٨٩٢ - ١٩٥٢م)، محمد تيمور (١٨٩٢ - ١٩٢١م)، محمود تيمور (١٨٩٤ - ١٩٧٣م)، أمير بقطر (١٨٩٩ - ١٩٦٦م)، توفيق الحكيم (١٨٩٨ - ١٩٨٧م)، نجيب محفوظ (١٩١٢ - ٢٠٠٠م)، إبراهيم مدكور (١٩٠٢ - ٢٠٠٠م)، سامي الكيال (١٨٩٨ - ١٩٧٢م)، كامل الكيلاني (١٨٩٧ -

١٩٥٩ م)، مارون عبود (١٨٨٦ - ١٩٦٣ م)، زكي المحاسني (١٩٠٩ - ١٩٧٢ م)، أحمد أمين (١٨٨٦ - ١٩٥٤ م)، أحمد ضيف، مصطفى صادق الرافعي (١٨٨٠ - ١٩٣٧ م)، محمد سعيد العريان (١٩٠٥ - ١٩٦٤ م)، يحيى حقي، دريني خشبة (ت ١٩٦٥ م)، عبد الوهاب عزام (١٨٩٣ - ١٩٥٩ م)، أنيس المقدسي (١٨٨٦ - ١٩٧٧ م)، بطرس البستاني (١٨٦٢ - ١٩١٩ م)، سليمان البستاني (١٨٨٥ - ١٩٥٥ م)، لويس معلوف (١٨٦٣ - ١٩٤٧ م)، إسعاف النشاشيبي (١٨٨٢ - ١٩٤٨ م)، محمد عطية الأبراشي (١٨٩٧ - ١٩٨١ م)، عبد العزيز فهمي (١٨٧٠ - ١٩٥١ م)، حسن حسني عبد الوهاب (١٨٨٤ - ١٩٦٨ م)، أحمد حسن الزيات (١٨٨٥ - ١٩٦٨ م)، عمر فروخ (١٩٠٦ - ٢٠٠٠ م)، ساطع الحصري (١٨٨٠ - ١٩٦٨ م).

وفي مجال الشعر سطعت أسماء كوكبة من كبار الشعراء مثل محمود سامي البارودي (١٨٣٨ - ١٩٠٤ م)، أحمد شوقي (١٨٨٨ - ١٩٣٢ م)، حافظ إبراهيم (١٨٧١ - ١٩٣٢ م)، خليل مطران (١٨٧٢ - ١٩٤٩ م)، محمود غنيم (١٩٠٢ - ١٩٧٢ م)، معروف الرصافي (١٨٧٣ - ١٩٤٥ م)، محمد مهدي الجواهري، محمود حسن إسماعيل، عزيز أباظة (١٨٩٩ - ١٩٧٣ م)، أبو القاسم الشابي (١٩٠٩ - ١٩٣٤ م)، إيليا أبو ماضي (١٨٨٩ - ١٩٥٧ م)، إلياس أبو شبكة (١٩٠٣ - ١٩٤٧ م)، نسيب عريضة (١٨٨٧ - ١٩٤٦ م)، علي محمود طه (١٩٠٢ - ١٩٤٩ م)، أحمد زكي أبو شادي (١٨٩٢ - ١٩٥٥ م)، حمزة شحاتة (١٩١٠ - ١٩٧٢ م)، إبراهيم الطباطبائي (١٨٣٢ - ١٩٠١ م)، عبد المحسن الكاظمي (١٨٨١ - ١٩٣٥ م)، إبراهيم ناجي (١٨٩٨ - ١٩٥٣ م)، التيجاني يوسف بشير (١٩١٢ - ١٩٣٧ م)، على الجارم (١٨٨١ - ١٩٤٩ م)، جميل صدقي الزهاوي (١٨٦٣ - ١٩٣٦ م)، عبد الرحمن شكري (١٨٨٦ - ١٩٥٨ م)، إبراهيم طوقان (١٩٠٥ - ١٩٤١ م).

وفي مجال الفكر الإسلامي وتأصيل الثقافة العربية الإسلامية، برزت صفوة من المفكرين والعلماء والمصلحين، منهم محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥ م)، عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩ - ١٩٠٢ م)، قاسم أمين (١٨٦٥ - ١٩٠٨ م)، محمد خير الدين التونسي (١٨١٠ - ١٩٧٩ م)، حسين الجسر (١٨٤٥ - ١٩٠٩ م)، محمد بن جعفر الكتاني (١٨٩٧ - ١٩٢٧ م)، محمد رشيد رضا (١٨٦٥ - ١٩٣٥ م)، شكيب أرسلان (١٨٧٠ - ١٩٤٦ م)، محمود شكري الألوسي (١٨٥٧ - ١٩٣١ م)، طنطاوي جوهرى (١٨٧٠ - ١٩٢٤ م)، محمد الخضر حسين (١٨٧٦ - ١٩٥٤ م)، عبد العزيز النعالبي (١٨٧٤ - ١٩٤٤ م)، حسن البنا (١٩٠٥ - ١٩٤٩ م)، عبد الحميد بن باديس (١٨٨٧ - ١٩٤٦ م)، محمد الطاهر بن عاشور (١٨٧٩ - ١٩٧٣ م)، محمد الفاضل بن عاشور (١٩٠٩ - ١٩٧٠ م)، علال الفاسي (١٩٠٩ - ١٩٧٤ م)، مصطفى السباعي (١٩١٥ - ١٩٦٤ م)، على الطنطاوي، محمد

مصطفى المراغي (١٨٨١ - ١٩٣٥م)، محمود شلتوت (١٨٩٣ - ١٩٦٣م)، محب الدين الخطيب (١٨٨٦ - ١٩٦٩م)، مصطفى عبد الرازق (١٨٨٢ - ١٩٤٧م)، عبد الله كنون (١٩٠٨ - ١٩٨٩م)، محمد البشير الإبراهيمي (١٨٨٩ - ١٩٦٥م)، أمين الخولي (١٨٩٥ - ١٩٦٦م)، أحمد زكي (١٨٩٤ - ١٩٧٥م)، سيد قطب (١٩٠٦ - ١٩٦٦م)، محمد قطب، عبد العزيز بن باز (١٩٠٠م - ١٩٩٩م)، عبد الوهاب خلاف (١٨٨٨ - ١٩٥٦م)، محمد أبو زهرة (١٨٩٨ - ٢٠٠٠م)، عبد الرازق السنهوري (١٨٩٥ - ١٩٧١م)، محمد الغزالي (١٩١٧ - ١٩٩٦م)، إحسان عباس (١٩٢٠ - ٢٠٠٠م)، أنور الجندي (١٩١٦ - ٢٠٠٠م)، يوسف القرضاوي (١٩٢٦ - ٢٠٠٠م).

وفي مجال المسرح والفنون التشكيلية، ظهرت أسماء كثيرة، منها يعقوب صنوع (١٨٣٩ - ١٩١٢م)، أبو خليل القباني (١٨٣٣ - ١٩٠٣م)، يوسف وهبي، نجيب الريحاني (١٨٩١ - ١٩٤٩م)، جورج أبيض (١٨٨٠ - ١٩٥٩م).

وحفلت الحياة الثقافية في الدولة العثمانية في تلك المرحلة، بأسماء ذات وزن وتأثير، فمن أبرز الشعراء الأتراك في القرن التاسع عشر، والثالث الأول من القرن العشرين، عبد الله سيادت (١٨٦٩ - ١٩٣٢م)، وأحمد هاشم (١٨٨٥ - ١٩٣٣م)، وسليمان نصيب (١٨٦٦ - ١٩١٧م) الذي شغل منصب رئيس جامعة إستانبول، وكان من الكتاب المشاركين بانتظام في مجلة (كنوز المعرفة)، وترك مجموعة من الآثار النظرية والشعرية. ومن الشعراء الأتراك الذين عمروا إلى منتصف القرن العشرين، أحمد ريشيت (١٨٧٠ - ١٩٥٦م) الذي تولى ولاية القدس في عام ١٩٠٦م، ثم حلب. ومنهم أيضاً عبد الحق همت (١٨٥٢ - ١٩٣٧م) الشاعر، والمسرحي، والديبلوماسي، وفكري توفيق (١٨٦٧ - ١٩١٥م)، وحسين سولت يلتجن (١٨٦٧ - ١٩٢٤م) الذي درس الطب في باريس، وأصبح شاعراً، وكتائباً، ومسرحياً، والشاعرة نيجار هانم (١٨٦٢ - ١٩١٨م)، ورشيا زاده محمد أكرم (١٨٤٧ - ١٩١٤م). ومن أشهر الروائيين الأتراك، أحمد مدحت (١٨٤٤ - ١٩١٢م)، وسيزيا سامي باشا زاده (١٨٥٨ - ١٩٣٥م). وظهر خلال هذه الفترة أول مؤرخة في التاريخ التركي، وهي فاطمة عليّة (١٨٦٢ - ١٩٣٩م) التي كتبت (المرأة في الإسلام)، و(سيرة الفلاسفة)، و(أحمد سيادت باشا في زمانه)، وهي امتداد للمؤرخين الأتراك في القرن التاسع عشر، مثل أحمد وفيق باشا (١٨٢٨ - ١٨٩١م) مؤلف (نسب الأتراك)، و(مذكرة في التاريخ التركي)، و(اللهجة العثمانية)، وأحمد سيادت (١٨٢٢ - ١٨٩٥م) مؤلف (تاريخ سيادت)، و(قصص الأنبياء وتاريخ الخلفاء)^(١٨).

وقامت في الهند في هذه الفترة (أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين)، حركة ثقافية تعددت مجالاتها، وتنوّعت عطاءاتها. وسطعت في سماء الفكر، والعلم، والأدب، والثقافة أسماء كانت لها

أدوارها في خدمة الثقافة العربية الإسلامية، مثل عبد الحي الحسني اللكهنوي (١٨٦٩ - ١٩٢٣ م)، مولانا أبي الكلام آزاد (- م)، محمد إقبال (١٨٧٧ - ١٩٣٨ م)، أبي الحسن الندوي (١٩١٤ - ١٩٩٩ م)، أبي الأعلى المودودي (١٩٠٣ - ١٩٧٩ م)^(١٣).

وعرفت الثقافة العربية الإسلامية في إيران نهضة مزدهرة خلال هذه الفترة، فقد تم افتتاح جامعة طهران في عام ١٩٣٤، وقبلها كانت المدارس الدينية التي أسسها العلماء، تسهم في نشر اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية. وأنشئت في عام ١٩٠٠ (**جمعية التعليم**)، وكانت عبارة عن مكتبة وطنية، تحتوي على العديد من المؤلفات المتنوعة. وقد نُحِت هذه الجمعية في إنشاء إحدى وخمسين مدرسة ثانوية حديثة في المدن الرئيسية. وأنشأت الطبقة المثقفة في تبريز جريدة (**كنز المعرفة**) التي عكفت على ترجمة الكتب الحديثة، وركزت على المؤلفات التي تناولت الإصلاح الإداري والاقتصادي^(٢٠).

وفي إندونيسيا لم يقنع المسلمون بالمدارس التي أنشأها الاستعمار؛ إذ كان واضحاً أن هذه المدارس أنشئت لخدمة الاستعمار الهولندي، وتخرج الموظفين اللازمين للإدارة الحكومية. ومن هنا اتجه المسلمون إلى إنشاء مؤسسة ثقافية أسموها (**الجمعية المحمدية**)، وقد أنشأها في عام ١٩١٢ م كيان أحمد دحلان في جوكرتا، ومن أهم أهدافها توسيع الثقافة العربية الإسلامية، وتطوير الثقافة بصورة عامة. كما أنشئت في عام ١٩٢٤ م جمعية (**شبان المسلمين**) وكان من أهم مبادئها التجمع حول الدين الإسلامي للكفاح ضد الاستعمار الهولندي المسيحي. وقبل هذه المرحلة أنشئت في جوكرتا جمعية ثقافية باسم (**بودي أو تومو**)، وأصبح لها فروع في أربعين إقليماً، وعشرات الآلاف من الأعضاء في كل مكان من إندونيسيا. وقد أنشأ هذه الجمعية وحيد الدين، الذي بدأ نشاطه مع مطلع القرن العشرين، ودعا إلى إنشاء **صندوق لنشر الثقافة والتعليم**. وهي دعوة مبكرة جداً، ومبادرة ثقافية فردية كان لها تأثيرها الواضح على الحياة الثقافية العربية الإسلامية في إندونيسيا^(٢١).

وعرفت الثقافة العربية الإسلامية في القارة الأفريقية، خصوصاً في أفريقيا الغربية حركة ثقافية طوال القرن التاسع عشر، وامتدت آثارها إلى العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين؛ حيث غلبت الثقافة الفرنسية، وأنحسر المد الثقافي العربي الإسلامي في المساجد والزوايا والكتاتيب القرآنية. ومن الظواهر المميزة في أفريقيا أن أحد السلاطين، وهو عصمان دان فوديو (١٧٥٤ - ١٨١٧ م)، الذي كان من ألمع الملوك المسلمين الذين تعاقبوا على أفريقيا الغربية، كان كاتباً غزير الإنتاج، ومصلاً بعيد النظر، وشاعراً مجيداً، صدرت له مجموعة من الكتب ذات التأثير الواسع في الحياة الدينية والثقافية في أفريقيا الغربية، منها (**نصيحة الأمة المحمدية**)، و(**إرشاد أهل التفريط والإفراط**)، و(**إحياء السنة وإخماد البدع**). وكانت هذه المؤلفات هي الأساس الفكري والمذهبي، الذي قامت عليه الثقافة العربية الإسلامية الأفريقية في القرن

التاسع عشر، وفي القرن العشرين. وتوجد مؤلفات عصمان دان فوديو في مكتبة جامع أحمد بيللو، في زاريا بنيجيريا^(٢٢).

وفي مالي، بُعثت الحياة في مدينة تمبكتو، مع مطالع القرن العشرين، فاستقبلت من جديد طلاب الدراسات الإسلامية على مستوى عال، ونشطت المدارس العربية الإسلامية، والكتاتيب التي انتشرت في البلاد، وانتعشت الثقافة العربية الإسلامية، خصوصاً بعد الاستقلال. وهناك جهود مكثفة تبذل على المستويين الحكومي والأهلي لتطوير الدور الثقافي الذي تقوم به تمبكتو التي تعد جامعة واسعة لنشر العلم والفكر والثقافة العربية والإسلامية ليس في مالي فحسب، وإنما في الأقطار الإسلامية المجاورة^(٢٣) ولا يخضع ترتيب هذه الأسماء لأي مقياس، لأن الأسماء التي ترد في هذا السياق هي من الكثرة بحيث يطول إحصاؤها، وإنما ذكرنا منها ما كان لأصحابها القدح المعلى في خدمة الثقافة والفكر والأدب والفن، بغض النظر عن انتمائها الفكري، أو المذهبي، أو الإقليمي .

لقد كانت الأعمال التي أنجزتها هذه الصفوة من رجالات الثقافة العربية الإسلامية القاعدة الأساسية التي قامت عليها النهضة الثقافية في العالم الإسلامي، وقد استمر عطاء هذه الكوكبة من الرواد مثلاً يقتدي به طوال القرن العشرين. وقد امتلأت سماء الفكر، والعلم، والأدب، والثقافة، والفنون في العالم الإسلامي بنجوم لامعة تتمثل في عشرات الآلاف من المفكرين، والمثقفين، والشعراء، والأدباء، والمسرحيين، والرسامين، والفنانين، الذين تعج بهم الساحة العربية الإسلامية، والذين ينهلون كل حسب وجهته، من هذا الإرث الثقافي الحضاري الذي أسسه هؤلاء الرواد جيلاً بعد جيل. وليس قصدنا في هذه الدراسة أن نستقصي أسماء هذه الأجيال المتعاقبة من المفكرين الذين صنعوا. ولا يزالون يصنعون. الثقافة العربية الإسلامية، وإنما حسبنا أننا أتينا على ذكر أسماء رجالات رواد كان لهم فضل السبق في التأسيس للنهضة الثقافية، وفي تراكم الخبرات والتجارب، في هذا الحقل من حقول الإبداع الإنساني.

وعلى اختلاف مناحي الإتجاهات الثقافية التي سادت خلال القرن العشرين، وفي ظل الظروف الخاصة التي عاشها العالم العربي الإسلامي، وعلى الرغم من تنوع العطاء الثقافي، وغزارة المواد الثقافية التي أنتجت خلال القرن الماضي، وتوزعها من قطر إلى آخر، فإن الخلاصة التي يخرج بها الباحث من رصد حصيلة هذا العطاء، تُعدُّ بالمقاييس السائدة حصيلةً وافرةً، تدل على حيوية عناصر النخبة في الأمة التي اضطلعت بأدوار متفاوتة المستوى، والمكانة، والقدرة، والتأثير في الحياة الثقافية في شتى بلدان العالم العربي الإسلامي، وهو ما نشأ عنه كم كبير من الخبرات الثقافية المترامية، والتي يمكن الاستفادة منها في تطوير الثقافة العربية الإسلامية، وفي تلقيحها وبث روح جديدة فيها.

ولكن الملاحظ أن الاستفادة من الخبرات الثقافية ظلت تترنح بين الإعمال والإهمال، وبين الاعتبار والإهدار، وبين الانتفاع والضباغ، وهو ما فوّت الفرص الكثيرة، وتسبب في تخلف العمل الثقافي العام

وفي قصوره عن تلبية احتياجات التنمية الشاملة ومتطلبات بناء الإنسان العربي الإسلامي، بناءً متكاملًا متوازنًا.

لقد قطع العمل الثقافي في القرن الماضي مراحل عديدة أبرزها مرحلتان اثنتان:

أولاهما: مرحلة العمل الفردي أو الجماعي المحدود، وتبدأ من مطلع القرن إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية .

ثانيتهما: مرحلة العمل الثقافي العربي المشترك، وتبدأ مع إنشاء جامعة الدول العربية في عام ١٩٤٥م، بتأسيس الإدارة الثقافية بها، التي تولت تدبير الشأن الثقافي على الصعيد العربي في وقت كان ثلثا العالم العربي لا يزالان خاضعين للإستعمار الأوروبي.

واستمرت الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية تراول نشاطها إلى حين تأسيس المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في عام ١٩٧٠ م .

أما العمل الثقافي على الصعيد الحكومي الرسمي فقد ظلّ معدوماً في الأقطار العربية الإسلامية إلى أن تأسست الإدارة العامة للثقافة بوزارة المعارف المصرية في عام ١٩٤٢م بمبادرة من الدكتور طه حسين لما كان مستشاراً لوزارة المعارف، وكان من مكوّناتها إدارة الترجمة. وفي المرحلة التالية ستنضمّ الإدارة العامة للثقافة في وزارة المعارف إلى أول وزارة للثقافة تأسست في مصر، بل في العالم العربي الإسلامي عقب عام ١٩٥٢م.

وبعد قيام منظمة المؤتمر الإسلامي في عام ١٩٦٩م وإنشاء الأمانة العامة للمنظمة في عام ١٩٧٢م أنشئت إدارة للثقافة. وبعد عشر سنوات تأسست في عام ١٩٨٢م، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، التي عُهد إليها بمهمة تحقيق أهداف العمل الثقافي المشترك، على المستويين معاً، العربي والإسلامي .

وبإنشاء المنظمين الإسلامية والعربية المتخصصتين في الشؤون الثقافية، في إطار منظمة المؤتمر الإسلامي وجامعة الدول العربية توافرت شروط العمل الثقافي المشترك، واجتمعت عناصره المتكاملة. وبإنشاء وزارات للثقافة في الدول العربية والإسلامية -في النصف الثاني من القرن العشرين- أصبح الإطار العام للعمل الثقافي مكتمل الأركان، وهو ما يسمح بقيام نهضة ثقافية مزدهرة.

فهل قامت هذه النهضة حقيقةً؟

يمكن أن نطرح السؤال بصيغة أخرى:

• هل استفاد العمل الثقافي في طوره الحالي من الخبرات المتراكمة، نتيجةً للتجارب السابقة طوال قرن؟

إنَّ أهمَّ ملحظ نسجَّله في هذا السياق أن انطلاق النهضة الثقافية في العالم الإسلامي؛ سواء في القرن التاسع عشر، أم في مطلع القرن العشرين، إنما قام على الجهود الفردية والمبادرات الجماعية في إطار المؤسسات والجمعيات والهيئات الأهلية. وهنا نصل إلى المفهوم السائد اليوم في المحافل الدولية، والقاضي بإعطاء المبادرات الأهلية الضوء الأخضر للعمل والانطلاق، خصوصاً في المجالات الثقافية للتخفيف عن كاهل الحكومات أعباء تدبير الشأن الثقافي، وتحقيق التنمية الثقافية في مجالاتها كافة.

لقد تراكمت الخبرات الثقافية طوال القرن الماضي من جراء المبادرات الفردية والأهلية والحكومية في شتى حقول العمل الثقافي. ولذلك، فإن الاستفادة من هذه الخبرات ضرورة من ضرورات إعادة البناء الثقافي على صعيد العالم الإسلامي.

وهنا لا بد من أن نشير إلى أن الإستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي التي وضعتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، وصادق عليها مؤتمر القمة الإسلامي السادس في عام ١٩٩١م، قد استُفيد في إعدادها من الخبرات الثقافية المستخلصة من التجارب التي شهدتها الحقل الثقافي العربي والإسلامي. فلقد استغرق العمل عدة سنوات في التخطيط والتحضير والإعداد لهذه الإستراتيجية، وشارك في هذا العمل الثقافي صفوة من رجالات الفكر، والعلم، والثقافة من المتخصصين في التخطيط الثقافي.

كذلك استفادت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في إعداد الخطة العربية الثقافية الشاملة، من الخبرات الثقافية المتراكمة عبر القرن العشرين. ولذلك جاءت الخطتان (الإسلامية والعربية) مُحكمتين، ومتقنتين، لإستنادهما إلى الخبرة الثقافية الغنية.

خلاصة:

لقد كان القرن العشرون قرن التحوُّلات الكبرى، التي شملت كل المجالات، وغطت جميع حقول النشاط الإنساني العام. وعلى المستوى الثقافي كان هذا القرن قرن التطورات الثقافية العميقة، التي عمَّت دول العالم أجمع، ووصل تأثيرها إلى العالم العربي الإسلامي. ولقد ترتَّب على هذه التطورات تعدُّد متشعب في الاتجاهات الثقافية، وتنوع غزير في المدارس الأدبية والفنية، ووفرة طاغية في التيارات الفكرية والمذهبية. وقد شمل كل ذلك العالم العربي الإسلامي، وأثر فيه تأثيرات عميقة. ويمكن أن نقول: إن الخبرات الثقافية التي خرج بها العالم العربي الإسلامي من القرن العشرين اصطبغت جميعها بالتيارات والاتجاهات، والمدارس الثقافية التي عرفها هذا القرن، وهو ما أكسب هذه الخبرات غنى في المضمون، وغزارة في الإنتاج، وكثافة في الحضور الفاعل والمؤثِّر في الحياة الثقافية في العالم الإسلامي قاطبة.

ولما كان من فضائل ثقافتنا أنها لا تضيق بالتجديد، بل تؤمن به، وتفتح ذراعيها له، وتدعو إلى الاجتهاد في أمور الدين وقضايا الحياة. ولما كان مفهوم الثقافة لا يقتصر على الجانب المعرفي والفكري، بل يشمل الجانب الوجداني الذي يُعنى به الفن، والجانب الروحي الذي يعنى به الدين، والجانب العملي أو السلوكي الذي تعنى به الأديان والأخلاق، بل تشمل الجانب المادي أيضاً من الحياة^(٢٤)، فإن النهضة الثقافية التي نطمح إلى أن تزدهر في القرن الحادي والعشرين في العالم الإسلامي لن تضيق عن استيعاب هذه المعاني والمضامين جميعاً حتى تكون فاعلةً ومؤثرةً في دورة حضارية جديدة، تنهض بمسؤولياتها، الأمة الإسلامية قاطبة، بجميع عناصرها ومكوناتها وخصوصيات شعوبها.

وفي ضوء هذه الخبرات المتراكمة والتجارب المكتسبة يمكن أن نقول: إن القاعدة الأساسية لإنطلاقة ثقافية عربية إسلامية في القرن الحادي والعشرين، قد أُرسيّت أركانها، واستكملت عناصرها، وإن على العالم العربي الإسلامي أن يعمل بكل ما يتوافر لديه من إمكانيات ووسائل، من أجل استئناف دورة حضارية ثقافية جديدة، يسهم بها في إغناء الثقافات الإنسانية، وترشيدها، وتقويتها، والدفع بها نحو آفاق المستقبل الإنساني المزدهر .

وتلك هي مسؤولية العاملين في المجال الثقافي، كلٌّ من موقعه، وبما يمتلكه من إمكانيات، وموارد وقدرات، وفي هذا المجال يجب أن يتركز العمل العربي الإسلامي الثقافي المشترك .

الهوامش:

- (١) د. إحسان عباس، بحوث ودراسات في الأدب والتاريخ (بيروت: دار الغرب الإسلامي، المجلد ٢٠٠٠، ص ٢١٨.
- (٢) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم مجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، الجزء الخامس، ١٩٩٧، ص ٢٧٣) يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي " ... نشأت في بيت والدي كما ينشأ أبناء بيوت العلم، فبدأت التعلم وحفظ القرآن الكريم في الثالثة من عمري، وكان الذي يعلمنا الكتابة وبلغتنا حفظ القرآن، جماعة من أقاربنا من حفاظ القرآن، ويشرف علينا إشرافاً عالياً، علم البيت بل الوطن كله في ذلك الزمان (العقد الأول من القرن العشرين)، عمي شقيق والدي الأصغر الشيخ محمد المكي الإبراهيمي، وكان حامل لواء الفنون العربية غير مدافع، من نحوها وصرفها واشتقاقها ولغتها، أخذ كل ذلك عن البقية الصالحة من علماء هذه الفنون بإقليمنا المتبحرين في العربية والفقهاء، ولم يكن هؤلاء العلماء قد رحلوا إلى الأمصار الكبرى ذات الجامعات العلمية التاريخية كفاس وتونس والقاهرة، وإنما كانوا يتوارثون العلوم الإسلامية طبقة عن طبقة "
- (٣) عباس بن صالح طاشكندي، الطباعة العربية في الهند: دائرة المعارف العثمانية ودورها في إحياء التراث العربي الإسلامي (الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ٢٠٠٠م). قامت (دائرة المعارف العثمانية)، وهي دار النشر تأسست في عام ١٨٩٠م في حيدر آباد بالهند، بدور كبير في نشر التراث العربي الإسلامي، وإحياء العلوم والمعارف والآداب العربية الإسلامية من خلال نشرها لطائفة كبيرة من الكتب باللغة العربية في الهند. انظر: أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (بيروت: دار الغرب الإسلامي، الجزء الخامس، ١٩٩٧) ص ٧٣.

(٤) د. محسن العثماني الندوي رئيس قسم اللغة العربية بجامعة دلهي، "يحدثونك عن أبي الحسن الندوي بقلم علماء العصر وأدبائه"، (دمشق، دار ابن كثير، ٢٠٠٠م).

(٥) دليل جامعات ومعاهد التعليم العالي في جمهورية مصر العربية، نشر وزارة التعليم العالي، القاهرة، ٢٠٠٠م.

(٦) مجلة (المستقبل العربي)، بيروت، عدد ٢٦٥، مارس ٢٠٠١م.

(٧) أصدرها في القاهرة جورجى زيدان في عام ١٨٩٢م، ولا تزال تصدر، وهي أقدم مجلة ثقافية عربية وواظبت على الصدور .

(٨) أصدرها في بيروت ثم في القاهرة، يعقوب صروف وفارس نمر، في عام ١٨٧٦م، وتوقفت عن الصدور في عام ١٩٥٢م. وكانت تمتاز بالبحوث العلمية والطبية والزراعية وأخبار الاختراعات والاكتشافات العلمية، إضافة إلى المواد الثقافية والأدبية والفكرية والتاريخية

(٩) أصدرها الشيخ محمد رشيد رضا في القاهرة في عام ١٨٩٨م، وتوقفت عن الصدور في عام ١٩٣٥م. وهي حاملة لواء الفكر الإسلامي الحديث والدعوة الإسلامية، والتمنيبه لقضايا العالم الإسلامي بأسره .

(١٠) أصدرها أحمد حسن الزيات في القاهرة في عام ١٩٣٣م، وتوقفت عن الصدور في عام ١٩٥٢م.

(١١) صدرت في القاهرة عن لجنة التأليف والترجمة والنشر في عام ١٩٣٩م، ورأس تحريرها أحمد أمين، وتوقفت عن الصدور في عام

١٩٥٢م .

(١٢) صدرت في النصف الأول من القرن العشرين مجلات ثقافية كان لها دورها في ازدهار الحياة الثقافية، منها مجلة (العرفان) التي

أصدرها أحمد عارف الدين في صيدا بلبنان في عام ١٩٠٩م و (مجلة المجتمع العلمي العربي بدمشق) صدرت في عام ١٩٢١م ولا تزال تصدر حتى الآن، ومجلة (المشرق) صدرت عن المطبعة الكاثوليكية في بيروت في عام ١٨٥٩م، وتوقفت عن الصدور في

عام ١٩٥٩م، ومجلة (الحديث) أصدرها في حلب سامي الكيال في عام ١٩٢٧م، وتوقفت عن الصدور في عام ١٩٥٩م.

(١٣) محمود محمد الطناحي، "الكتاب المطبوع مصر في القرن التاسع عشر: تاريخ وتحليل" دار الهلال، القاهرة ١٩٩٦م. ويشتمل هذا

الكتاب على معلومات مخصصة ومدققة عن إصدارات مطبعة بولاق، والمطابع المصرية الأخرى خلال القرن التاسع عشر .

(١٤) خالد زيادة، الشيخ حسين الجسر : حياته وفكره، طرابلس، لبنان دار الإنشاء للصحافة والطباعة والنشر، ١٩٨٢م.

(١٥) يوسف اليان سركيس، جامع التصانيف الحديثة(بيروت: دار صادر، ١٩٩٣م).

(١٦) يوسف اليان سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعربة، بيروت: دار صادر، ١٩٩٣م، الطبعة الأولى صدرت في عام ١٩٢٨م

ويتهي إحصاء الكتب فيها إلى عام ١٩١٩ م .

(١٧) تجدر الإشارة هنا إلى أن كلية الطب بجامعة القاهرة قد أنشئت في عام ١٨٢٧م باسم (مدرسة الطب) قبل إنشاء كلية الآداب،

بل قبل إنشائه الجامعة ذاتها، وضمت إلى الجامعة في عام ١٩٢٥م انظر (كليات ومعاهد التعليم العالي في جمهورية مصر العربية

)، وزارة التعليم العالي، القاهرة، ٢٠٠٠م.

(١٨) شاکر النابلسي، عصر التكايا والرعايا: وصف المشهد الثقافي لبلاد الشام في المعهد العثماني (١٥١٦ - ١٩١٨)، (بيروت،

المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٩، ص: ٥١٨ - ٥٢٢).

(١٩) بعد قيام جمهورية باكستان الإسلامية في عام ١٩٤٨، أصبح أبو الأعلى المودودي من أكبر مفكرينها .

(٢٠) د. أمال السبيكي، تاريخ إيران السياسي بين نورين (١٩٠٦ - ١٩٧٩)، سلسلة (عالم المعرفة)، عدد : ٢٥٠، الكويت، ١٩٩٩م.

(٢١) د. أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، (الجزء ٨، ص: ٥٢٤ - ٥٢٥، القاهرة، ١٩٨٣م) .

(٢٢) الحضارة الإسلامية في النيجر، نشر المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الرباط، ١٩٩٤م .

(٢٣) د. أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، الجزء الأول، مرجع سابق ذكره ص: ٥٦٤ .

(٢٤) د. يوسف القرضاوي، ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق، ص: ١٣ - ١٤، (القاهرة، ٢٠٠٠م، دار الشروق).

المصادر والمراجع :

- الإبراهيمي - محمد البشير، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، المجلد ٥، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٧م
- إحسان - د. عباس، بحوث ودراسات في الأدب والتاريخ، المجلد ٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٠م.
- الجندي - أنور، أعلام القرن الرابع عشر الهجري، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨١م.
- الجندي - أنور، مفكرون وأدباء من خلال آثارهم، دار الرشد، بيروت، ١٩٦٧م.
- الحضارة الإسلامية في النيجر، نشر المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الرباط، ١٩٩٤م.
- داغر - يوسف أسعد، مصادر الدراسة الأدبية : الفكر العربي الحديث في سير أعلامه (١٨٠٠ - ١٩٥٥م)، مطابع لبنان، بيروت، ١٩٥٦م.
- دليل جامعات ومعاهد التعليم العالي في جمهورية مصر العربية، نشر وزارة التعليم العالي، القاهرة، ٢٠٠٠ م .
- زيادة - د. خالد، الشيخ حسين الجسر: حياته وفكره، دار الإنشاء للطباعة والنشر، طرابلس، لبنان، ١٩٨٢م.
- السبكي - د. أمال، تاريخ إيران السياسي بين ثورتين (١٩٠٦ - ١٩٧٩)، سلسلة (عالم المعرفة) العدد ٢٥٠، الكويت، ١٩٩٩م.
- سركيس - يوسف إيلان، جامع التصنيف الحديثة، دار صادر، بيروت، ١٩٩٣ م .
- سركيس - يوسف إيلان، معجم المطبوعات العربية والمعربة، دار صادر، بيروت، ١٩٦٣ م .
- شلبي - د. أحمد، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، دار النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٣م.
- طاشكندى - عباس بن صالح، الطباعة العربية في الهند : دائرة المعارف العثمانية ودورها في إحياء التراث العربي الإسلامي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ٢٠٠٠ م .
- الطناحي - د. محمود محمد، الكتاب المطبوع بمصر في القرن التاسع عشر: تاريخ وتحليل، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٦ م .
- علام - د. محمد مهدي، المجمعون في خمسين عاماً، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٨٦م.
- القرضاوي - د. يوسف، ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- المجذوب، محمد، علماء ومفكرين عرفتهم، الجزء ٢-٣، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٦م.
- النابلسي - شاكرا، عصر التكايا والرعايا: وصف المشهد الثقافي لبلاد الشام في المعهد العثماني (١٥١٦ - ١٩١٨م)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٩م.
- الندوي - د. محسن العثماني، محدثونك عن أبي الحسن الندوي بقلم علماء العصر وأدبائه، إعداد وتقديم، دار ابن كثير، دمشق، ٢٠٠٠م.
- يونس - محمد، تجديد الفكر الإسلامي على مشارف قرن جديد: قراءة في فكر الشيخ محمد الغزالي، دار القلم، القاهرة، ١٩٩٩م.